الفصل السادس عشر
المكتبات الوطنية وتطورها في دول أوروبا حتى مطالع القرن العشرين

لقد درسنا فيما سبق، تطور المكتبات حسب العصور، وذلك لسهولة الدراسة نسبياً ولعدم بروز التنوعات الكبرى في المكتبات وبروز التخصص في هذا المجال. ولكن عصري النهضة والإصلاح جلبا إلى أوروبا تطوراً كبيراً جداً ومهماً جداً في حقول السياسة والدين والاقتصاد والثقافة والتربية والتعليم والآداب والفنون. وقد انعكست هذه التطورات في المؤسسات السياسية والثقافية والاقتصادية والتربوية وزاد حجم هذه المؤسسات زيادة كبرى وانتشرت في المكان انتشاراً واسعاً جداً. كذلك حدثت في العالم، بشكل خاص في أوروبا ، تطورات رهيبة أثرت، سلباً وايجاباً، في تطور المؤسسات الثقافية، ومن جملتها المكتبات. ولقد حدثت في أوروبا أحداث سياسية وحروب كبرى تركت آثارها على تطور المكتبات. فمن أهمها الثورة الفرنسية وحروب نابليون وبروز القوميات الكبرى في أوروبا ونشوء الإمبراطوريات الكبيرة الاستعمارية واقتسام أوروبا العالم القديم وصراعها فيما بينها على الغنائم، وأخيراً الحربان العالميتان الأولى والثانية. كل ذلك أثر بشكل واضح جداً في تاريخ العالم وفي حضارته وتطوره وثقافته ومكتباته. كما وأن بروز الأفكار السياسية الحديثة كالاشتراكية وغيرها وتأسيس الدول الشيوعية والدول النازية أثر بعمق في تطور المكتبات ككل، وفي تلك الأماكن بشكل أخص.

وإن التطورات الثقافية والتربوية والفكرية؛ التي حدثت في أوروبا خلال هذه الحقبة كانت أكثر من غيرها في تطور المؤسسات الثقافية ومن جملتها المكتبات. فقد بدأ التعليم ينتشر في أوروبا وازداد عدد القادرين على القراءة والكتابة. وأتى عصر الأنوار فحمل إلى أوروبا أفكاراً جديدة فيما يتعلق بالكون وموقف الكنيسة وتقدم العلوم، وحل المنهج التجريبي في العلوم محل المناهج القديمة، ولم يعد ينظر إلى المكتبة والكتب على أنها شيء جميل للزينة فقط، وإنما بدأ القوم ينظرون إليها على أنها أشياء ضرورية ولعامة الشعب،

كذلك حاولت الحكومات الحديثة، ولا سيما الجماعية منها، مراقبة الفكر وتوجيهه الوجهة التي تهم تلك الدول، فقد مارست الدول ذات الأنظمة المطلقة ولا تزال دول شرقي أوروبا وروسيا وغيرها تمارس سلطة مطلقة على الفكر في بلادها. وقد أصاب المكتبات والكتب التي هي أوعية المعرفة نصيب كبير منها.

كل ذلك جعلنا نفضل دراسة تطور أنواع معينة من المكتبات في أوروبا أولاً، ومن بعدها الولايات المتحدة ، وذلك لسهولة البحث ولعدم إيقاف البحث في نوع معين من المكتبات عند فترة محددة ثم العودة لمتابعة البحث من جديد، لأن ذلك يسبب التشتت ولا يعين على التركيز.

لقد وضعت النهضة الأسس للثورة العلمية التي حدثت فيما بعد في القرن السابع عشر. فقد أدى اكتشاف أمريكا إلى معرفة طرق البحار وإلى رسم علمي للخرائط. واختراع الطباعة هو في حد ذاته إنجاز علمي أدى إلى نشر المعرفة الانسانية بشكل لم يسبق إليه من قبل.

وإن عهد الأنوار الذي أتى بعد عصري النهضة والإصلاح ركز اهتمامه على الأسلوب العلمي. كذلك ضعف نفوذ الكنيسة إلى درجة أن معظم دول أوروبا أصبحت علمانية. كما شاهدت هذه الفترة تأسيس معظم الجمعيات العلمية مثل الأكادمية الفرنسية للعلوم والأكادمية الملكية في انكلترا. وكان ذلك حافزاً قوياً من أجل تأسيس المكتبات وتنظيمها.

ولقد استمرت نفس الروح العلمية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأدى هذا بالتالي إلى ظهور الثورة الصناعية التي بدأت أول ما بدأت في انكلترا ثم انتشرت في أرجاء أوروبا بعد ذلك. وهذا بدوره أدى إلى بروز طبقة العمال وازدياد نفوذها في أوروبا، حتى أصبحت الآن من أشهر الطبقات الاجتماعية في أوروبا. كذلك صادرت الثورة الفرنسية كتب الكنائس فساعد ذلك على توجيه ضربة قوية إلى سلطة الكنيسة، وكذلك فعل نابليون ولكنه اضطهد الفكر والحرية الفكرية. ولقد توطد مركز المكتبات بكافة أنواعها في القرن التاسع عشر وأحس الناس بفائدتها والحاجة إليها. وولد في هذا القرن علم المكتبات الحديث في أوروبا، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية. كذلك شاهد هذا القرن التنافس الاستعماري الرهيب بين الدول، ذلك التنافس الذي أدى إلى نشوب حربين عالميتين مدمرتين.

وشاهد الصراع بين الطبقات وبروز الطبقة العاملة كقوة عاملة مؤثرة في سياسات الدول، كذلك شاهد القرن العشرون تأسيس الدول الشيوعية في الاتحاد السوفيتي أولاً ومن ثم في أرجاء من العالم. ولقد تضررت الكنيسة والمكتبات كثيراً من الحربين العالميتين الأولى والثانية. ولكن ما ان انتهت الحرب حتى عاود القوم الاهتمام بالمكتبات على جميع المستويات. ونرى الآن الشعوب الأوروبية تتسابق إلى العناية بالمكتبات والكلمة المطبوعة وإيصالها إلى أكبر عدد ممكن من المواطنين .

ويأتي على رأس القائمة إنكلترا والاتحاد السوفييتي وفرنسا وتتلوها بقية الدول.

المكتبات الوطنية :

ان تطور المكتبة الوطنية كنوع من المكتبات، اقترن مع تطور الدول البورجوازية ذات السيادة كنتيجة لمحاولتها تقوية ومركزة العلوم والثقافة ومراقبتها وتوجيهها. فقد تأسست المكتبة الوطنية لتجمع وتحفظ المنشورات التي تمثل الإنجازات العقلية لدولة من الدول. وقد بدأ ذلك بشكل رسمي سنة ١٧٩٥م عندما أعلن المؤتمر الوطني الفرنسي أن المكتبة التي كان يمتلكها ملوك فرنسا قد أصبحت ملكاً عاماً وطنياً، ومنحها الحق في الحصول على نسخ الإيداع القانوني من جميع المواد المطبوعة في فرنسا.

وقد تأسست في أوروبا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أكثر من خمسين مكتبة وطنية. هذا وإن امتلاك القسم الأكبر من منشورات الدولة التي تخدمها المكتبة وامتلاك القسم الأكبر من المطبوعات في جميع فروع المعرفة هو مبدأ أساسي سارت عليه جميع المكتبات الوطنية. ولكن هذا الهدف صعب التحقيق بل ثبت استحالة تحقيقه. فقد عجزت المكتبات الوطنية الكبرى في العالم مثل مكتبة الكونغرس ومكتبة لينين ومكتبة المتحف البريطاني والمكتبة الأهلية في باريس عن تحقيق ذلك. كذلك تسعى المكتبات الوطنية لأن تكون مقراً للإيداع القانوني في بلدها الأم. ذلك أن أغلب الدول تحمي الملكية الأدبية وحقوق التأليف للمؤلفين، ومن أجل هذه الغاية تصدر هذه الدول براءة تكفل حق المؤلف في امتلاكه وتصرفه في مؤلفاته، وتحميه من أن يسطو الآخرون على إنتاجه وذلك لقاء إيداعه مجاناً في المكتبة الوطنية لبلده عدداً من النسخ.

مكتبات أوروبا الوطنية :

يُعدُّ نمو المكتبات في أوروبا رائعاً بعد انقضاء العصور الوسطى، بالموازنة مع نموها

السابق. والسبب الرئيسي هو عصر النهضة وعصر الإصلاح واختراع الطباعة وانتشارها.

هذا وإن المكتبات الوطنية الأوروبية هي أشهر المكتبات الأوروبية الحديثة، وهي تهدف أن تحفظ كل مخطوط ومطبوع له علاقة بالتراث الوطني. ويعود أغلبها إلى أصول تاريخية. وبشكل عام فقد منحت هذه المكتبات موارد اقتصادية دائمة بل وموازنات سخية وموظفين أكفياء ويعني نجاحها واستمرارها الكثير لتاريخ المكتبات في العالم الغربي.

المكتبة الأهلية في باريس :

تعد هذه المكتبة مثلاً على المكتبات الوطنية في أوروبا. فقد نمت وتطورت عبر القرون وكانت في أساسها مجموعة من المكتبات الخاصة بعدد من ملوك فرنسا، ثم جمعت كلها ووضعت في مكان واحد. وبعد إقامتها فترة في قلاع بلوا وفونتيبلو أعيدت إلى باريس في عهد هنري الرابع (١٥٨٩–١٦١٠م). وقد صدر سنة ١٥٣٧م مرسوم ملكي يمنحها الحق في امتلاك نسخة من كل كتاب يطبع في فرنسا وبذلك أصبحت مقراً للإيداع القانوني ومنحها هذا القانون نمواً ثابتاً مطرداً. وقد صدر أول فهرس مطبوع لها سنة ١٦٢٢م، وقد قسم الفهرس إلى قسمين رئيسيين : قسم المخطوطات وقسم الكتب المطبوعة، ثم قسم كل من هذين القسمين الرئيسيين إلى أقسام فرعية بموجب اللغات وقد أهملت المكتبة في عهد الوزير مازاران الذي أسس مكتبة فخمة حجبت المكتبة الملكية وطغت عليها. ذلك أن هذا الوزير الذي كان مشجعاً وحامياً للعلوم والآداب أسس مكتبة فخمة وأعانه في تأسيسها وإدارتها وتنظيمها الباحث العظيم نوديه Naudi الذي يعتبر من أعظم المكتبيين عبر العصور، ويعد كتابه الذي أصدره سنة ١٦٢٧م بعنوان «**مشروع بناء وتنظيم مكتبة**» من أقدم الكتب التي تضمنت برنامجاً متكاملاً لمكتبة عالمية مجهزة بأهم الكتب في كل فروع المعرفة. ووضع في كتابه هذا مبدأ المهمة الملقاة على عاتق أمين المكتبة وهي الحرية التي يجب أن تتمتع بها المكتبة. وقد دخل في خدمة مازاران سنة ١٦٤٢م وبدأ يطبق مبادئه التي نادى بها في كتابه وجمع لها ما ينوف على ٤٠ ألف مجلد وفتحت أبوابها للباحثين أيام الخميس من كل أسبوع وذلك سنة ١٦٤٣م. ثم فتحت المكتبة أبوابها للجميع اعتباراً من سنة ١٦٤٧م. ولكن هذه المكتبة التي عدت من عجائب الدنيا دمرت أو دمر القسم الأكبر منها أثناء ثورة الفروند التي نشبت في فرنسا في حدود سنة ١٦٥٢م وأدت إلى إزاحة مازاران عن سلطته وهربه من باريس. كذلك غادر نوديه فرنسا والتجأ إلى بلدان أخرى. وأخيراً نقلت مكتبة مازاران أو ما تبقى منها إلى كلية الأمم الأربعة وفتحت

للجمهور بدءاً من سنة ١٦٨٨م.

ولقد تطورت المكتبة الملكية بعد ذلك تطوراً سريعاً هاماً خلال حكم لويس الرابع عشر (١٦٤٣–١٧١٥م) وبشكل خاص في عهد وزيره كولبير. فقد شجع هذا الوزير العلوم والآداب. فقد أرسل البعوث داخلياً وخارجياً من أجل تزويد المكتبة الملكية بكل ماهو جديد ونادر من الكتب والمخطوطات، وقد أضيف إلى المكتبة مجموعات كبيرة من الكتب كانت خاصة بعدد من الأمراء. كما وأن أمين المكتبة آنذاك كليمان أعاد تصنيفها حسب أفكار فرنسيس بيكون في تصنيف المعرفة الإنسانية. وصدر فهرس جديد يقع في عشرة أجزاء ستة منها للمؤلف والعنوان، وأربعة منها للموضوعات. كذلك أصدرت الدراسة ١٦٩٠م فهرساً يقع في ثمانية مجلدات يضم ما تحويه الدار من مخطوطات. وقد بلغ عدد كتبها لدى وفاة كولبير أكثر من ثمانين ألف مطبوع وستة عشر ألف مخطوط. وقد استمرت العناية بالدار بعد وفاة كولبير في عهد لويس الرابع عشر وخلفائه من بعده، وظلت هذه العناية مستمرة حتى نشوب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م. وكانت المكتبة الملكية معدودة عند نشوب الثورة الفرنسية بحق أكبر دار كتب في العالم وتمتلك أكبر وأغنى وأثمن مجموعة من الكتب المطبوعة والمخطوطة في العالم.

وبالرغم من كل ما ذكر فإننا نجانب الصواب إذا خلعنا على المكتبة صفة علمية خالصة. فقد كانت فكرة أن المكتبة دليل على الفخامة والأبهة ومكان للاستعراض لا تزال مسيطرة على العقول، وانعكس ذلك في تنظيمها ومحتوياتها إلى حد كبير.

ولقد امتلكت المكتبة الأهلية عبر تاريخها الطويل، مجموعات نفيسة من الكتب المهمة والنادرة. منها على سبيل المثال حصول المكتبة على مجموعة المخطوطات البالغ عددها ٨٠٠ مخطوط؛ والتي جمعت فيما مضى للملكة كاترين دي مديتشي ملكة فرنسا في القرن السادس عشر. ولعل أعظم شيء تمتلكه المكتبة هو هدية مؤلفة من اثنين وأربعين مخطوطاً صينياً أرسلها هدية إلى المكتبة أحد أباطرة الصين بوساطة بعثة تبشيرية فرنسية عائدة إلى فرنسا.

ولقد أصاب المكتبة الملكية إهمال وإغفال أوائل عهد الثورة الفرنسية التي نشبت سنة ١٧٨٩م. ولكن بعد فترة عادت الثورة للاهتمام بها، وقد تغير اسمها آنذاك ليصبح المكتبة الأهلية. وعندما صادرت الثورة مخطوطات وكتب الكنائس والأديرة المنحلة، والكتب

والمخطوطات التي صادرتها من النبلاء والإقطاعيين أودعت قسماً كبيراً منها في المكتبة الأهلية التي فازت بحصة الأسد، حتى وصل عدد كتبها آنذاك إلى أكثر من ٣٠٠ ألف مطبوع وعدد كبير من المخطوطات. وقد ساعدت الثورة الفرنسية على توطيد فكرة المكتبة العامة التي يجب أن تفتح أبوابها للجميع لا لفئة مختارة. وقد فتحت الثورة الفرنسية المكتبة للجمهور بمعدل يومين في الأسبوع وبمعدل خمس ساعات في اليوم.

وقد أصبحت المكتبة الأهلية الفرنسية في القرن التاسع عشر مكتبة من أهم وأشهر مكتبات العالم. فقد بلغ عدد كتبها سنة ١٨١٨م حوالي مليون كتاب ارتفع إلى مليون ونصف سنة ١٨٦٠م وأصبح بها في مطالع القرن العشرين أكثر من ثلاثة ملايين مطبوع. وقد كان هناك إلحاح وضغط من أجل تنظيم هذه المكتبة تنظيماً علمياً. وقد بدئ سنة ١٨٤٠م في إعادة تنظيم المكتبة كلياً. وقد شيد بناء جديد لها وفتحت أبوابها للباحثين في جميع أرجاء العالم. وبدئ في أواخر القرن التاسع عشر بنشر فهرس مطبوع عام للكتب المطبوعة، وقد تم صدوره منذ فترة ليست بعيدة، ونافت أجزاؤه على المائتين ويحوي أسماء المؤلفين.

وعلى الرغم من حربين عالميتين مدمرتين خاضتهما فرنسا وتركتا آثارهما على المكتبة الأهلية وخلقتا لها كثيراً من المشاكل ، إلا أن المكتبة كانت تنهض كل مرة من كبوتها وتتابع مسيرتها، وذلك لمكانتها لدى الشعب الفرنسي. وهي الآن معدودة من أعظم وأضخم مكتبات العالم. وقد وصل عدد كتبها في الستينات من هذا القرن إلى أكثر من ستة ملايين كتاب باستثناء المخطوطات والخرائط والأطالس والصور. وقد أصبحت هذه المكتبة مركزاً ببليوغرافياً أساسياً يخدم فرنسا كلها وتقوم بنشر لوائح ببليوغرافية وبيانات إدارية وغيرها من الأدوات التي يحتاج إليها تنظيم المكتبات. وتعاني المكتبة الأهلية، كما تعاني بقية المكتبات الكبرى، من ضيق المكان وازدحامه وتدفق المواد وقلة اليد العاملة المتخصصة وضآلة المخصصات المالية.

مكتبة المتحف البريطاني في لندن :

إن مكتبة المتحف البريطاني في لندن مساوية في الأهمية العالمية للمكتبة الأهلية في باريس، وهي الآن مكتبة المملكة المتحدة الوطنية. إن هذه المكتبة ليست قديمة قدم المكتبة الأهلية. لقد شعر بالحاجة إلى مكتبة وطنية في انكلترا قبل تأسيس المتحف البريطاني بزمن

طويل. ولقد ضاعت فرصة إيجاد مكتبة وطنية عندما حُلت الأديرة وصودرت كتبها زمن هنري الثامن في القرن السادس عشر. وظلت انكلترا دون مكتبة وطنية حتى القرن الثامن عشر.

ذلك أنه كان لملوك انكلترا مكتبات خاصة بهم، وصدف أن أصبح ريتشارد بنتلي مديراً للمكتبة الملكية سنة ١٦٩٣م فطالب شركة بائعي القرطاسية أن تودع نسختين من كل كتاب يطبع في انجلترا في المكتبة الملكية، كما طالب بتخصيص مبلغ مرتفع من المال يخصص لشراء كتب للمكتبة، ولكن هذه المقترحات لم تنفذ كلياً. ولقد اتخذت الخطوة الأولى لتأسيس مكتبة المتحف البريطاني سنة ١٧٠٠م. فقد توفي في تلك السنة سير هنري كاتون وأوصى بكتبه والبناء الذي يضم الكتب إلى الشعب الانكليزي. وقد سمحت الملكة آن سنة ١٧٠٧م بضم المكتبة الملكية إلى مكتبة كاتون، ووضعت المجموعتان في بناء واحد. ولكن لم تفتح أبوابها للجمهور قط. ولقد تم إنشاء مكتبة وطنية حقيقية في إنكلترا في العقد الخامس من القرن الثامن عشر. ذلك أنه ضمت في ذلك العقد عدة مكتبات خاصة لملك إنكلترا جورج الثاني ولروبيرت هارلي ولهانس سلون ووضعت في مكان واحد وفتحت للجمهور في ١٥ كانون الثاني سنة ١٧٥٩م وكان ذلك البداية المتواضعة لمكتبة المتحف البريطاني الشهيرة. وقد سمح قانون إنشاء المكتبة الذي أقره البرلمان الإنكليزي «بالدخول المجاني لكل راغب في الدرس والاطلاع».

ولم تحقق المكتبة كبير نجاح خلال ستين سنة خلت من تأسيسها، فقد تابعت المكتبة نموها ببطء وأصابها بعض الإهمال خلال حروب الثورة الفرنسية وحروب نابليون. ولكن بدأ الاهتمام بالمكتبة بعد انقضاء حروب نابليون، فقد زاد عدد الكتب زيادة كبرى واشتريت لها مجموعات ضخمة من الكتب ووصلتها مجموعات كبرى من المواد الكتبية كهدايا من عدد من الأشخاص البارزين. وإن أهم ما وصلها في تلك الفترة هوملفات الصحف البريطانية التي صدرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهي مجلدة ولها فهرس مستقل. كذلك اضيف الى المكتبة سنة ١٨٢٣م مجموعة كتب الملك جورج الثالث الخاصة، وهي مجموعة غنية ضاعفت وبالحرف الواحد، ما امتلكته الدار من كتب مطبوعة . كذلك وضعت الخطط لبناء بناء جديد وأنجز أول جناح من البناء الجديد سنة ١٨٢٨م، وبلغ عدد الكتب آنذاك ٢٠٠ ألف مجلد، وقد زاد بعد ذلك عدد الكتب في المكتبة زيادة كبرى وذلك بسبب الهدايا القيمة التي وصلت من أشخاص كثيرين، وبسبب

الشراء الذي قامت به المكتبة، وبسبب تنفيذ قانون الإيداع القانوني الذي ينص على وضع نسختين في المكتبة من كل كتاب يطبع في أرجاء الإمبراطورية البريطانية.

ولقد كانت هذه المكتبة محظوظة إذ تولى إدارتها عدد من المكتبيين القديرين، ويعد سير أنطوني بانيزي أقدرهم.

ولد بانيزي في إيطاليا سنة ١٧٩٧م ثم هاجر وهو شاب إلى انكلترا وانضم سنة ١٨٣١م إلى موظفي مكتبة المتحف البريطاني، ولكنه أثبت كفايته وترقى في سلم الوظائف حتى أصبح مديراً للمكتبة. وقد حققت المكتبة والحركة المكتبية كلها تقدماً ونجاحاً عظيمين تحت قيادته. لقد كان اعتماد المكتبة بالدرجة الأولى على كتب الايداع القانوني والهدايا والهبات. وكانت التحف تملأ رفوف المكتبة، وقد قدم سنة ١٨٤٥م مذكرة يطلب فيها تخصيص مبلغ عشرة آلاف جنيه لمدة عشر سنوات، بالإضافة إلى المخصصات القديمة، لشراء كتب فقط. ووافق مجلس العموم على ذلك لمدة ثلاث سنوات وبدأ بشراء الكتب من جميع أرجاء العالم. كذلك ساعد بانيزي على إصدار قانون جديد للإيداع القانوني سنة ١٨٤٢م.

كذلك ساعد في إكمال البناء الجديد وبشكل خاص قاعة المطالعة التي تم بناؤها سنة ١٨٥٧م. كذلك طالب بانيزي أن ينقل من المكتبة المواد التي ليس لها علاقة مباشرة بها مثل عينات العلوم الطبيعية والنقود وما ماثل، وتم ذلك. كذلك يعد بانيزي واضع حجر الأساس في صرح علم المكتبات الحديث وذلك عندما أصدر قواعد الفهرسة الوصفية التي كان لها تأثير كبير على تطور قواعد الفهرسة التي تلتها في العالم أجمع، وبشكل خاص في العالم الانكلوسكسوني. وهو الذي أصر على اصدار فهرس مطبوع لمحتويات المكتبة من الكتب المطبوعة. وقد تم البدء بهذا العمل تحت إدارته ولكن لم يطبع إلا فيما بعد بين سنوات ١٨٨١ و١٩٠٠م. وقد أصبحت في عهده مكتبة المتحف البريطاني أعظم مكتبة في العالم وتجاوز نفوذها بريطانيا إلى القارة الأوروبية وإلى أمريكا.

وقد اضطر بانيزي أن يستقيل سنة ١٨٦٦م بسبب سوء حالته الصحية، وقد بلغ عدد الكتب المطبوعة آنذاك في المكتبة أكثر من مليون ونصف كتاب، وعدد القراء أكثر من ١٨٠ ألف قارئ.

ولقد أثر طراز بناء مكتبة المتحف في أبنية عدد من المكتبات المهمة وانتشر طرازه في

أماكن كثيرة، مثل المكتبة الأهلية في باريس ومكتبة الكونغرس في واشنطن.

ولقد تتابع تطور المكتبة على يد خلفاء بانيزي. وعند افتتاح هذا القرن كانت سمعة المكتبة لا تزال مرتفعة، ولكن منذ ذلك الزمن بدأت الانتقادات توجه إلى المكتبة، بعضها محلي وبعضها بسبب التطور السريع الذي أحرزته مكتبات وطنية أخرى، وبخاصة مكتبة الكونغرس. وقد وجه للمكتبة نقد لاذع لأنها تحوي أدباً لا قيمة له، وبسبب خدمتها البطيئة وبسبب قصر ساعات فتح المكتبة وبسبب عدم تنظيمها وعدم تعاونها مع بقية المكتبات.

ومنذ سنة ١٩٢٢م بدأت تواجه مكتبة المتحف أزمة بعد أخرى بسبب قلة المال وضيق المكان وازدحامه. كذلك تضرر البناء إبان الحرب العالمية الثانية بسبب الغارات الألمانية الجوية. وقد أقيمت لجنة سنة ١٩٦٧م لبحث وضع المكتبة، وصدر قانون سنة ١٩٧٠م يقضي بتخصيص مبلغ ٣٦ مليون جنيه لفصل المتحف عن المكتبة وإيجاد مبنى جديد للمكتبة. وقد أعيد تنظيم المكتبة كلياً بعد سنة ١٩٧٠م، وذلك من أجل خدمة أسرع وأكفأ وتعاون مثمر مع بقية المكتبات، وأثبت التنظيم الجديد نجاحه. وقد أصبحت مكتبة المتحف البريطاني في القرن العشرين أحد مصادر المعرفة الإنسانية الكبرى في العالم، ذلك أنها تحوي مواد تعود لجميع عهود التاريخ الإنساني؛ من أقدم أوراق البردي واللوحات الفخارية حتى أحدث المواد المتعلقة بالحرب العالمية الثانية والذرة وأبحاث الفضاء والصعود إلى القمر. وقد بلغ عدد كتبها في العقد السابع من هذا القرن أكثر من سبعة ملايين مجلد وأكثر من مائة ألف مخطوط. ويمكن أن نعد من كنوزها مايلي :

1) The Cottonian Genesis مخطوط كاتـــون

2) The Rosetta Stone حجـــر رشيـــد

3) The Magna Charta العهـــد الكبيـــر

4) The Diamond Sutra لؤلـــؤة سوتـــرا

5) The Codex Sinaiticus مخطـوط سينـــاء

ولا بد أن نذكر أن عدد المكتبات الوطنية في انكلترا ارتفع خلال القرن العشرين من واحدة إلى ثلاث. فقد أصبحت مكتبة كلية الحقوق في جامعة أدنبرة مكتبة سكوتلاندة الوطنية وذلك من سنة ١٩٢٥م عندما أصدر البرلمان قانون الإيداع وعدَّها مكتبة

سكوتلاندة الوطنية، كذلك أسست في ويلز مكتبة وطنية ومنحت حق الإيداع القانوني اعتباراً من سنة ١٩١١م. وذلك بفضل جهود شعب ويلز وتصميمه وسخائه المنقطع النظير وتبرعه السخي من أجل هذه الغاية.

المكتبة الوطنية في ألمانيا :

لقد كانت ألمانيا، قبل توحيدها، مؤلفة من عدد كبير من الدويلات يحكمها إمبراطور شبح هو إمبراطور الإمبراطورية الجرمانية المقدسة. ولم يكن فيها سوى عدد محدود من الدول الكبرى مثل بروسيا وبافاريا. وكانت مسرحاً لحوادث عنيفة وحروب قاسية وثورات ملتهبة. ولقد وجد بها عدد كبير من العظماء والأدباء والمفكرين الذين أغنوا الفكر الإنساني وساهموا في إغنائه بشكل منقطع النظير. ولقد قادت بروسيا ألمانيا كلها في حقل التوحيد في القرن التاسع عشر، مما جعل مكتبة حاكم برلين هي المكتبة الوطنية الرئيسية للإمبراطورية الألمانية،مع وجود مكتبات وطنية أخرى في عواصم الدويلات الأخرى مثل ميونيخ وغيرها من العواصم الإقليمية.

لقد ظهرت مكتبة المانيا الوطنية متأخرة على مسرح الحوادث ويمكن أن تؤرخ في سنة ١٦٦١م. ففي هذا العام فتح منتخب بروسيا الكبير فريدريك وليام أبواب مكتبته الخاصة للجمهور، ولكنها وضعت في مكان غير مناسب. وقد وصل عدد كتبها عند وفاة مؤسسها حوالي ٢٠ ألف مجلد. وقد ساعد قانون الإيداع الذي صدر سنة ١٦٩٩م، والذي جعل المكتبة مقراً للكتب التي تودع بموجب هذا القانون، في نمو عدد الكتب في تلك المكتبة بشكل ملحوظ. ولقد تابع خلفاؤه العناية بهذه المكتبة وزاد عدد كتبها. وقد اهتم بها فريدريك الكبير وأوجد لها بناءً خاصاً مستقلاً ووصل عدد كتبها سنة ١٧٩٠م إلى ما يقارب ١٥٠ ألف مجلد. واستمر نموها عن طريق الشراء والمنح.

وكانت المكتبة تستعمل خلال القرن الثامن عشر، مكتبةً لجامعة برلين، وذلك إلى جانب كونها مكتبة وطنية. ووضعت المكتبة اعتباراً من سنة ١٨٠٩م تحت إدارة وزارة التربية. وقد تولى إدارتها بين سنتي ١٨١٧ و١٨٤٠م أمين مكتبة مقتدر هو فريدريك وليكن الذي تميز عهده بنموها السريع حتى وصل عدد كتبها إلى أكثر من ٣٠٠ ألف مجلد.

وقد أدى توحيد ألمانيا وقيام الإمبراطورية الألمانية الثانية سنة ١٨٧١م إلى زيادة الاهتمام

بالمكتبات بشكل عام، وبالمكتبة الوطنية بشكل خاص، فقد أصبحت المكتبة الملكية في برلين مكتبة الإمبراطورية الألمانية الوطنية وأهملت بقية المكتبات الوطنية في بافاريا وساسكونيا وهانوفر . وقد زاد عدد كتبها زيادة كبرى فقد وصل سنة ١٩٠٩م عندما نقلت إلى بناء جديد أكثر من ٢٥٠٠٠٠ر١ مجلد بما في ذلك مجموعة من أنفس الكتب العائدة لأوائل عهد الطباعة وعددها ٣٣ ألف مجلد.

ولقد أصبح اسمها بعد الحرب العالمية الأولى «مكتبة الدولة» وزاد عدد كتبها حتى وصل سنة ١٩٣٠م إلى ٢ر٥ مليون مجلد و٥٥ ألف مخطوط وحوالي ٤٠٠ ألف خريطة. وقد امتد نفوذها خارج المانيا وشعر بذلك جميع العاملين في حقل المكتبات في جميع أرجاء العالم. ولقد عاق نموها الحكم النازي وتدابيره الإرهابية ورقابته الصارمة. ولقد تضررت كثيراً خلال الحرب العالمية الثانية وتلف كثير من مجموعاتها على الرغم من أن الحكومة الألمانية كانت وزعت محتوياتها في أماكن مختلفة.

وبعد انتهاء الحرب وقيام حكومة ألمانيا الغربية بدأت هذه الحكومة بالاعتناء بالمكتبة والاهتمام بها من جديد وجمعت ما تبقى من هذا التراث في أراضي ألمانيا الغربية وجعلت مكانها في جامعة ماربورغ. وقد وصل عدد كتبها سنة ١٩٦٦م إلى أكثر من مليوني كتاب. وهناك خطط كثيرة للنهوض بها وايجاد مكان مناسب لها يكون في برلين.

كذلك تُعدُّ مكتبة بافاريا التي مقرها في ميونيخ مكتبة بافاريا الوطنية وهي في أساسها مكتبة بلاط بافريا. وهي شهيرة جداً وغنية كل الغنى بمجموعاتها من مخطوطات العصور الوسطى وأوائل الطباعة.

مكتبة النمسا الوطنية :

يُعدُّ تاريخ المكتبة الأهلية في فينا مهماً وموغلاً في القدم، ويُعدُّ الإمبراطور مكسيميليان الأول المؤسس الحقيقي لهذه المكتبة، وقد تابع الأباطرة اهتمامهم بهذه المكتبة وغذوها بمجموعات مهمة من الكتب وقد بني لها بناء خاص سنة ١٦٢٣م ليكون مقراً لها. ومع التوسع المستمر أعيد بناء هذا البناء من جديد في أوائل القرن العشرين. وسميت هذه المكتبة بعد سقوط الإمبراطورية بعد الحرب العالمية الأولى باسم «المكتبة الأهلية». وقد تألمت تحت حكم النازي وخلال الحرب العالمية الثانية، ولكنها نهضت من كبوتها وتابعت سيرها وهي الآن مقر الإيداع القانوني في النمسا، وتشتهر بكتبها النادرة المتعلقة بالبلقان

والشرق الأدنى، إلى جانب مجموعة رائعة جداً من مخطوطات العصور الوسطى. ويبلغ عدد كتبها الآن أكثر من مليوني مطبوع، وحوالي ٣٥ ألف مخطوط وآلاف الخرائط والصور والأعمال الموسيقية .

مكتبة الفاتيكان :

يوجد في ايطاليا عدد من المكتبات الوطنية أشهرها مكتبة الفاتيكان في روما.

يُعدُّ البابا نقولا الخامس (القرن الخامس عشر) المؤسس الحقيقي لهذه المكتبة، وقد افتتحت رسمياً في عهد البابا سكتوس الرابع ووضعها في اربع غرف جميلة في قصر الفاتيكان وسلسلت المخطوطات إلى الحائط ووضعت على المناضد.

وقد اهتم البابوات المتتابعون بالمكتبة وغذوها بالمطبوعات والمخطوطات وأتتها الهدايا والمنح من كل مكان؛ فقد أهدت ملكة السويد كريستينيا مكتبتها الشهيرة إلى الفاتيكان. كذلك اشترت المكتبة مجموعة مخطوطات أسرة بورغيزا وعددها ٣٠٠ مخطوط وهكذا. وقد استمر إمدادها بالكتب النادرة والمهمة طيلة القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من غناها الفائق بالكتب والمخطوطات إلا إنها لم تكن منظمة إطلاقاً. وفتحت المكتبة أبوابها للجمهور في عهد ليو الثالث عشر، ولكن عدم تنظيمها جعل الاستفادة منها محدودة. وأخيراً وضعت الخطط لتنظيمها تنظيماً جيداً وتولى تنظيمها خبراء أمريكان قدموا من أمريكا سنة ١٩٢٧م إلى الفاتيكان لتنظيم المكتبة. وبعد عمل كثير وجهود رائعة أعيد تنظيم المكتبة كلياً، ووضع نظام جديد للفهرسة قريب الشبه من النظام الأمريكي؛ وأعيد تصنيف المكتبة وجرى توسيع مخازنها وإضافة رفوف معدنية متحركة لها. ولم تعد مكتبة الفاتيكان بيتاً تسجن فيه الكتب وإنما أصبحت مخزناً جاهزاً للمعرفة الإنسانية يستطيع جميع الباحثين الوصول إليه.

ولا بد من ذكر مكتبتين تعدان مكتبات وطنية في ايطاليا : الأولى مكتبة الأمبروزيانا والثانية المكتبة الأهلية في روما. أما مكتبة الأمبروزيانا فتعتبر مكتبة ميلانو الوطنية ويعود تاريخ تأسيسها إلى القرن السابع عشر، وهي غنية بالمجموعات الشرقية بخاصة، وتخدم الآن كمكتبة عامة لميلانو. كذلك المكتبة الأهلية في روما التي تعد مكتبة ايطاليا الوطنية وكان اسمها قبل الحرب العالمية الثانية مكتبة فيكتور عمانوئيل . وقد فتحت المكتبة أبوابها سنة ١٨٧٦م. ولكن مجموعاتها أقدم من ذلك بكثير، وهي قوية بالإلهيات والتاريخ

الوسيط، ويبلغ عدد كتبها الآن أكثر من مليوني كتاب.

مكتبات روسيا الوطنية :

تقف مكتبة الاتحاد السوفييتي الوطنية على قدم المساواة مع مكتبة الكونغرس الوطنية واسمها مكتبة الدولة في لينينغراد، وهي سابقاً المكتبة الإمبراطورية في بطرسبرغ. وقد وضع حجر الأساس لها قيصرة روسيا كاترين الثانية. وقد جمعت مجموعاتها أساساً من غنائم الحرب ونواتها مكتبة أسرة زالوسكي البولونية التي صادرتها روسيا لما اقتسمت بولوينا مع ألمانيا والنمسا، وكان بها أكثر من ٢٠٠ ألف مجلد من أنفس الأعمال وأجودها. ثم أضيف إليها مجموعات صغرى مدى العصور، وفتحت أبوابها للجمهور سنة ١٨١١م. وصدر قانون الإيداع سنة ١٨١٠م الذي يعطيها حق امتلاك نسختين من كل كتاب ينشر في روسيا. وظلت تنمو ببطء حتى أصبحت تعد ثاني مكتبة في أوروبا بعد المكتبة الأهلية. وبني لها بناء جديد واستقرت به سنة ١٩٠١م.

وقد اهتم الاتحاد السوفييتي بالمكتبة اهتماماً فائقاً وغذاها بمجموعات الكتب التي صودرت من الأسرة المالكة والإقطاعيين والمهاجرين والأديرة والكنائس ونما عدد الكتب فيها بشكل كبير حتى أصبح عدد كتبها الآن يقارب الـ ٢٠ مليون. وازدادت أهميتها مع الزمن، وتشمل خدماتها ونشاطاتها جميع المجالات البيبليوغرافية والمعلومات والتوثيق.

وهناك مكتبة أخرى في موسكو تعد مكتبة وطنية في الاتحاد السوفييتي هي مكتبة لينين. وإن نواة هذه المكتبة هي نواة مكتبة متحف Rumyantsev التي تأسست سنة ١٨٦٢م. وقد بدلت الثورة الروسية اسمها واهتمت بها كل الاهتمام وأغنتها بالكتب حتى وصل عدد كتبها في أيامنا هذه إلى ما ينوف على ٢٠ مليون مادة بما فيها الكتب والدوريات والكراسات وما ماثل. وهي مع مكتبة الدولة في لينينغراد تمثلان نظاماً متكاملاً للمكتبات الوطنية من أوسع وأكثر الأنظمة الوطنية للمكتبات تقدماً في العالم ومن أوسعها نفوذاً. وهما تمارسان نفوذاً لا يقاوم على المكتبات وتطورها في أوروبا الشرقية.

تشكل مجموعات المواد الموجودة في مكتبات دول أوروبا الوطنية تراثاً ثقافياً عالمياً مهماً كل الأهمية موجوداً في شكل مكتوب. وقد نمت هذه المجموعات عبر العصور ووصلتنا سالمة. وبعضها منظم بشكل جيد جداً وبعضها أقل تنظيماً. وتواجه كلها مشكلات المكان والفراغ والتنظيم والموظفين والفنيين والأموال اللازمة . هذا وإن الشروط

السياسية القلقة غير المستقرة والتقدم التقني الهائل يشكلان تحدياً جديداً كل يوم لهذه المكتبات، وتناضل جميع مكتبات أوروبا الوطنية بشدة جميعاً وفردياً، للسير قدماً وللاحتفاظ بأوضاعها الثقافية كمراكز ثقافية. ويبدو أن لها تاريخاً حافلاً ومستقبلاً لامعاً في مجال نشر المعرفة وتطوير الاتصال بالجماهير.

obeikandl.com